

المجلد: 06/ العدد: 01/ جوان 2022، ص 227/218

آليات قراءة النص القرآني في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة Mechanisms of reading the Quranic text In the light of modern linguistic studies

د. ميسومي نور الهدى
missoumihouda@gmail.com
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2022/06/02

تاريخ القبول: 2021/12/03

تاريخ الاستلام: 2021/06/20

ملخص: حين يكون مجال البحث متعلقا بالنص القرآني وبتلك الفروع المختلفة التي تستمد جوهرها منه، فلا بد أن يكون الحرص والتحري هو المبدأ الأخص لهذا البحث؛ فليس يخفى أن القرآن الكريم كان العامل الأساس في تكون علوم العربية، بل كل الدراسات التي ارتبطت به وهدفت إلى فهم معانيه، تحدد مسارها ومنهجها من خلال محاولات فهم نصه المقدس. وفي الدراسات النقدية العربية الحديثة اتجاهات نقدية مختلفة، منها التي استمدت منهجها من الموروث العربي القديم، ومنها التي تعول على المناهج الغربية الحديثة. فكان لابد من معالجة الآليات التي قرأت بها هذه الاتجاهات النص القرآني، خاصة في ظل الحاجة الملحة لتجديد قراءة النص القرآني. الكلمات المفتاحية: القرآن، القراءة، المنهج، الحداثة، التفكيكية.

abstract:

When the field of research is related to the Quranic text and to those various branches that derive its essence from it, Care and investigation must be the most specific principle of this research. It is no secret that the Noble Quran was the main factor in the formation of Arabic sciences. In modern critical studies, there are many critical trends, some of which derive their approach from the ancient Arab heritage, Including those who rely on modern Western curricula. It was necessary to address the mechanisms by which these trends read the Quranic text. Especially in light of the urgent need to renew the reading of the Quranic text.

Keywords: Quran, reading, curriculum, modernity, deconstruction.

تمهيد:

كل علوم اللغة يكون موضوعها الرئيس هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير، وهذا الارتباط بين الشكل والوظيفة هو ما تمهد الطريق أمام الحركة الفكرية في دراسة النص القرآني، وفتح الآفاق الجديدة في تحليله في إطار النحو والبلاغة والدلالة. وعلى الرغم من الجهود العظيمة في مجال ضبط النحو وتقعيده، وفي المجال البلاغي، فإن التطور الحاصل في النظريات اللغوية الحديثة أظهر دعوات مطلوبة تتجاوز حدود تلك الدراسات القديمة، فمنها القراءات المحافظة التي لا تنتكر للموروث القديم الذي أعان في فهم القضايا الحديثة، ومنها القراءات الحداثية للقرآن الكريم التي تأثرت كل التأثر بالمنتجات النقدية الحديثة بمختلف روافدها، دون مراعاة خصوصية النص القرآني أو دون الوصول إلى مصادقية حتمية لهذه المناهج الحديثة حتى، الأمر الذي يجلب إشكالات عديدة. ومن أهمها ما إذا كانت المناهج الحديثة ذات فاعلية تمكننا من معالجة النص القرآني المعجز؟ وهل الالتزام بالمناهج الحديثة ضرورة حتمية في فهم النص القرآني؟

وهذا ما يجعل هذا المقال على قدر من الأهمية، فهو يهدف إلى مواجهة القراءات الحديثة للقرآن الكريم لمواجهة علمية لمعرفة نسبة توافقتها مع خصائص القرآن الكريم ومقاصده.

ولأن الدراسة اختارت الخوض في القراءات الحديثة للنص القرآني، بين قراءات محافظة وأخرى منساقفة نحو صرامة المنهج، فقد آثرت أن تختبر إمكانية تحليل النص القرآني في ضوء هذه القراءات، ما اقتضى اتباعنا المنهج الوصفي والتحليلي.

والواقع أن المناهج التي اعتمدت في قراءة النص القرآني منذ المرحلة الإصلاحية وحتى عهد النهضة لم تستطع الخروج عن دائرة تفاسير القرون الستة الهجرية الأولى، الأمر الذي دفع إلى البحث عن مناهج جديدة لدراسة نصوص القرآن الكريم، تتوافق ومتطلبات الإنسان المعاصر، غير أن استيراد المناهج التي وُلدت من رحم لغات أجنبية تختلف عن طبيعة اللغة العربية، عمّق إشكالية المنهج التي تؤرق الكثير من النقاد العرب.

-النص القرآني في الدرس اللغوي العربي:

إن النص القرآني الذي جند له العلماء حشدا هائلا من الدراسات والبحوث، أسفر عن كثير من اللمسات البنيانية والنظريات الإعجازية، ولعل أهمها نظرية النظم التي اقتفى أثرها عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، أو تلك الرؤية النصية المتكاملة التي وقف عليها الزمخشري في كشفه. فالقرآن الكريم وطيد الصلة بالبلاغة، والبلاغة العربية تهتم أساسا بمسألة الإيصال والإبلاغ، فنجد بين ثنايا مباحثها التركيز على أحوال المتكلمين المختلفة ومعرفة مراتب السامعين والالتفات إلى سياق المعنى وكل ما يرتبط به من ملايسات، وعلى ذلك فقد درس البلاغيون الخطاب القرآني وفقا لعناصر الاتصال اللغوي: الخطاب، المتكلم، المخاطب. وقد تعددت الاتجاهات اللغوية في تحليل النص القرآني، التي استمدت مدلولاتها من طبيعة هذا النص، بل واتخذ بعضها منحى مكّنها من التأسيس لاتجاهات ونظريات مستقلة في علوم الأصول والتفسير والبلاغة والنحو، حيث نحت كل فئة مناهج تتعلق بالجانب الفكري الذي تُعَوّل عليه في فهم النص القرآني، أما في الدراسات اللغوية الحديثة فقد دأبت الدراسات الباحثة في موضوعات تحليل الخطاب القرآني على محاولة محاكاة الدرس اللساني الحديث وعلوم تحليل الخطاب، والمناهج التفكيكية التي غالبا ما تتعارض مع طبيعة الخطاب القرآني.

والحق أن كتب الإعجاز والتفسير كان لها الدور الأبرز في إثراء الدراسات القرآنية لكنها منذ الرسائل الأولى في الإعجاز للرماني والخطابي والباقلاني وصولا إلى الجرجاني فالزمخشري وما جاد به الرازي وابن الأثير، عرفت ركودا، ولكن هذا الركود لم يثبت أمام النهضة الأدبية، فبرزت فئة عملت على تجديد الدراسات القرآنية القديمة وإعادة إحيائها وهي فئة المحافظين، وفئة انساق خلف الدراسات النقدية الحديثة وجعلت منها آلية لتحليل النص القرآني. وسنحاول أن نعرض الآليات التي انتهجها الباحثون المحدثون في دراسة النص القرآني، مقتصرين دراستنا على بعض من المحافظين والحداثيين لكثرة المؤلفات في حقل الدراسات القرآنية.

-أقراءات الحديثة المحافظة للنص القرآني:

يُعرف مُجد عبده برائد التجديد وحامل لواء إعادة قراءة الموروث القديم، فقد كانت دراسة الموروث تحتل مكانها المرموق الذي لا ينافسها فيه منازع، ولم يكن نقد الدراسات القديمة أو محاولة الزيادة عليها فكرة هتية، لأن الآراء تتفق حول الصورة التي تتصور عليها هذه الدراسة. والدراسات القديمة للنص القرآني تفسر فروعاً من المعرفة مختلفة، وتعنى بها طوائف متفرقة من العلماء. فهي ملهمة لجميع النواحي النحوية والبلاغية والدلالية، بحيث إنها تدفع الباحث فيها إلى البحث المطول والمكثف، فهو عمل جهاذة من العلماء واللغويين. كانوا على قدر من اللغة لا يمكن للمحدثين مضاهاتهم فيه، وهي حقيقة تاريخية لا مراء فيها، ومن ثم كان لنا أن نتصور صعوبة الولوج إلى عالم النقد لهذه الفئة الفذة.

1-القراءة البنيانية:

إن ما بلغه أمين الخولي حين حاول تأسيس منهج جديد في تفسير النص القرآني هو نقلة في صالح النقد الأدبي الجديد، فقد جعل من الجانب اللغوي والبياني للنص القرآني مناط التفسير، باعتبار القرآن الكريم معجزا لغويا¹. وذلك لأن المبدأ الذي يسري عليه الإعجاز يقوم على اعتبارات جالية وبيانية ودلالية للغة، ما يجعل منظور القراءة الحديثة يركز على الجانب اللغوي. لأن من يدرس النص القرآني بوصفه مختصا لغويا يجد نفسه مسوقا بكل بساطة إلى

تحليل التراكيب اللغوية والصور البيانية والبحث في الحقول الدلالية. وكل من له اتصال بتحليل وقراءة القرآن الكريم يعلم أنه على قدر من المسؤولية، إذ لا بد له من الإحاطة بكل فروع اللغة المعروفة.

وقد سارت بنت الشاطي على نهج زوجها أمين الخولي، فجاءت مساهمتها في بناء هذا المنهج القائم على أساس التفسير البياني جلية في كتابها التفسير البياني للقرآن الكريم، وقد جعلت ضوابطاً لهذا المنهج، هي كالآتي:

أ- تناول الموضوعي لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيُجمع كل ما في القرآن عن هذا الموضوع من سور وآيات.
ب- تجنب الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، بل ترتب الآيات في الموضوع المدروس حسب نزولها، مع التركيز على الدلالة العامة للفظ.

ج- فهم الدلالة القرآنية للألفاظ باعتبار عربية القرآن، مع استقراء صيغ الألفاظ في الكتاب كله.

د- التركيز على أهمية السياق، وجعل النص مناط الفهم.

هذه هي ركائز المنهج البياني الذي بلغه أمين الخولي، وقد عمدت بنت الشاطي تطبيقه على قصار سور القرآن الكريم، ففسرت ألفاظ القرآن الكريم من الناحية اللغوية وجعلت تلمس الدلالات اللغوية التي تثرينا من المادة العربية للقرآن الكريم في استعمالها المختلفة، كما اعتمدت استقراء صيغ الألفاظ القرآنية وتدير سياقها الخاص في الآيات والسور.

ومن القضايا اللافنية التي جاءت بها، قضية نفي الترادف التي بلغت بعد اتباعها ركيزة الاستقراء، وقد ضربت لرأيها الكثير من الأمثلة: كلفظي "حلف" و"أقسم".

إن استقراء الكلمتين في القرآن يمنع الترادف بينهما: فلقد جاءت مادة "حلف" في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً، كلها بغير استثناء، في مقام الحنث باليمين. منها ست آيات في المنافقين الذين فضحتهم سورة التوبة بعد غزوة تبوك: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَتْ عَنْهُمْ آلُكُمْ غَايَةٌ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْآيَاتُ أَنْ يَقُولُوا إِنَّمَا دُعَاءُ الْكَاذِبِينَ} [التوبة: 42]. وقوله تعالى: {وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَعْنُهُمْ وَمَا يَخْلِفُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ أَفَلَا تُحْشَرُونَ} [التوبة: 56].

ومعها في المنافقين أيضاً، آيات نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [المجادلة: 14]. وقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: 18]. وجاء الفعل مرة واحدة مسنداً إلى الذين آمنوا، فلزمتهم كفارة الحنث باليمين في قوله تعالى: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ} [المائدة: 89].³

أما القسم فيغلب مجيئه في الأيمان الصادقة. وجاء المصدر منه موصوفاً بالعظمة في آية الواقعة: {وَأَنَّهُ لَاقِسَمٌ لِّؤْتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}. ويجيء الفعل في الشهادة ومثلها، حيث لا يحل الحنث باليمين، كالشهادة على البصية: المائدة 106، 107. وحين يسند القسم في القرآن إلى المجرمين فإنهم في ظنهم حائنين: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [الروم: 55]. وأمام هذا الاستعمال القرآني، لا يهون أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن فيها يلفت إلى فرق دقيق بين اللفظين المقول بترادفها، فرق يؤيده فقه العربية، فاختلاف مادتي اللفظين يؤذن باختلاف مدلول كل منهما، وبين حلف وحنث من القرب، ما ليس بين حلف وقسم، مما يبعد أن يكونا سواء.

وجدنا أن استقراء اللفظ القرآني جعل لهذه الآلية مزية مخالفة لما عهدناه في المصنفات الأولى، وتفرد بذلك عن بقية القراءات المعهودة، حيث أن تتبع جميع صيغ اللفظ القرآني ضرورة لفهم المعنى الحقيقي له، وذات الضوابط تكون في تأمل السياق التي ترد فيه الآيات، فهذه الآلية الدقيقة تختلف عن التفسير السابقة في كونها تجعل فهم النص القرآني السبيل الأمثل لاستخراج معاني الألفاظ، بينما كان يعتمد المفسرون على المعاجم في ذلك، وإن كانت هذه الآلية لا تغني في الكثير من القضايا الفقهية التي تحتاج إلى البحث في الأحاديث وأراء الفقهاء، إلا أنها تعتبر إضافة قيمة ودقيقة للقراءات الحديثة.

2- القراءة التحليلية:

تعد الآلية التحليلية في تفسير النص القرآني الأداة المفضلة لمن توجه توجهاً تفسيرياً للقرآن الكريم، وقد ظهرت الكثير من التفاسير الحديثة التي تحمل بواذر التجديد المتحفظ، وكان لهذا الظهور والجلاء البين دور في إثراء الدراسات القرآنية الحديثة، على سبيل أضواء البيان للشنقيطي، والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، و الوسيط في

تفسير القرآن الكريم لسيد طنطاوي وغيرها، وقد اعتمدت في مجملها على التحليل، في محاولة الكشف عن أسرار النص القرآني، والسَّبح في فضاءات معانيه الرحبية. ونحن هنا سنقتصر حديثنا عن تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور لشساعة الاتجاه وتشعب دراسته، لأن الاتجاه التفسيري يعتمد التحليل لكل ما يمكن استنتاجه من التفسير سواء تعلّق الأمر بالقراءات القرآنية، أو الجانب اللغوي، أو البلاغي أو النحوي أو أسباب النزول.

والطاهر بن عاشور من المحدثين المحافظين الذين توجهوا توجها تفسيريا وقدموا قراءة حديثة للنص القرآني، فهو على دراية واسعة باللغة، وقد اعتمد في تفسيره على مناقشة المفسرين القدماء، فيقبل آراءهم تارة ويرفضها أخرى معتمدا على التفسير القرآني للقرآن في كثير من الأحيان، فكثير من الآيات ترتبط ببعضها، ومن القراءات اللافتة للطاهر بن عاشور وذات الميزة التجديدية، ذلك التصور الذي قدمه عن مفهوم الجدلية وهو تصوّر متقدم من شأنه إحداث فرق جوهري لمعنى الجدلية حيث ورد في التحرير والتنوير: «والمجادلة: الخاصة بالقول وإيراد الحجة عليه، فتكون في الخبر كقوله: "يجادلنا في قوم لوط" [هود:74]، ويكون في الشر كقوله: "ولا جدال في الحج" [البقرة:197]. وإنما أرادوا أنه جادلهم فيما هو شر فعبر عن مرادهم بلفظ الجدال الموجه».

يستعين الطاهر بن عاشور في فهم المحاكاة القائمة بين القول الحجاجي والواقعة المحكية على الذخيرة اللغوية وما تحمله من دلالات قطعية في الإقناع وإقامة الحجة، وهذا ما أسهم في تصنيف الخطاب الحجاجي إلى خطاب جدلي يحمل دلالة الخير وخطاب جدلي يحمل دلالة الشر.

ويمكن من خلال الآيتين أن نميز أن لغايات التبادلات القولية مقصدين: أولها: الحجاج من أجل محو الخلاف: فلوط عليه السلام يُحاجج ردا لعذاب واقع، وثاني المقصدين: هو الحجاج من أجل تعميق الخلاف. فالجدال أثناء أداء فريضة الحج لا يمكن أن يقوم على أساس منطقي لأن المقام يستدعي الوفاق لا المخاصمة وبالتالي فهو خطاب غير نفعي لأنه لا يحتكم للعقل المنطقي.

وهي رؤية جديدة للطاهر بن عاشور تُوضّح لنا آلية القراءة التي اعتمدها في تفسير القرآن الكريم، فهو يحمل الآيات على بعضها، ويحلل موضع الاختلاف في الاستخدام اللغوي، ويرجعه للسياق الذي ورد فيه.

3- نظرية التصوير الفني:

كذلك أدلى سيد قطب بدلوه في ركب التجديد، بل إن دراسته قد أسفرت عن رؤية جديدة تمثلت في نظرية التصوير الفني التي أحسن تطبيقها في كتابه "في ظلال القرآن"، وهي نظرية تسمح لنا بأن نميز أهمية التصوير في الأسلوب القرآني. وسيد قطب دأب بادئ ذي بدء على استخراج الصور القرآنية وتحليلها تحليلًا عميقًا، استطاع به استخراج القيم السيكولوجية والسوسولوجية التي يُدلي بها النص القرآني. حتى ليجد القارئ نفسه مسوقا في بعض الأحيان إلى القول بأن فن التصوير القرآني مخصص لمعالجة الطبيعة النفسية للبشر.

ومن الآيات التي يجسد سيد قطب من خلالها ماهية التصوير قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ} [الحج:11].

هذه الصورة الفنية ترسم لهذا التزعزع العقائدي صورة تهتز وتترنخ، وتوشك على الانهيار، إن الخيال ليكاد يجسم هذا "الحرف" الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وأنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفهم، وهم يتأرجحون بين الثبات وال انقلاب؛ وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس.

فنظرية التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب، تأتي في شكل مذهب جديد يعتبر التصوير الفني الأداة المفضلة للتعبير في القرآن الكريم، إذ رأى سيد قطب أن التصوير الفني منهج القرآن في جميع أغراضه، يقول في معرض حديثه عن ذلك: «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية».

وبذلك يكون الوصول إلى الخصائص العامة للنص القرآني مرتكزا على نظرية التصوير، وهذا التصوير يكون على أوضح وجه في ميدان المفردات وحقل الدلالات. فالمفردة القرآنية لا تتوقف عند حدود التعريف التجريدي. بل معناها المنطقي يتعلّق بسياقات استعمالها التي تُكوّن قيمتها التعبيرية.

4- القراءة الصوتية (النظم الموسيقي):

في معرض حديثنا عن الآليات التي قرأ بها المحافظون النص القرآني، قطعاً لا يمكن أن نغفل قراءة مصطلحي صادق الرافعي، حيث انطلق الرافعي في حديثه عن الإعجاز من الحروف وأصواتها، ثم من الحركة الصرفية واللغوية، إذ يرى أن تدبر نظم ألفاظ القرآن الكريم يجعلنا نرى: «حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيبيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مُساوغة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تُساعٍ وربما كانت أوّس النصيين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها».

إن رأي الرافعي يقوم إذن على الانتقال في دراسة النص القرآني من الحروف إلى التراكيب. فالواقع أن الأصوات أبسط من الكلمات وفي المحمل تتكوّن المفردات من تآلف الحروف. فإذا أردنا أن نفهم النص القرآني كان من الضروري أن نتبع نظم الألفاظ وحركاتها، لأنها تُوقظ في الذهن مجاميع تصورية مرتبطة ببعضها تكون المعاني والدلالات، وعلى ذلك جعل الرافعي من تحليل الألفاظ تحليلاً مبنياً على تعالق الحروف ضمن مجموعة التراكيب.

وقد مثل الرافعي لأفكاره بتوضيحات تطبيقية: من ذلك لفظة (النذر)؛ فهو يرى أن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جساسة هذا الحرف ونبوءه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتهى من طبيعته في قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ" [القمر: 36]. إن التأمل في مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، يجعلها كتنقيل لخرة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد. ثم إن الراء من (تماروا) جاءت مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهت اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، وكذلك سلسلة الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، والغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر).

إن الحروف وحركاتها ونغمتها في القرآن الكريم تمرّ إلى الذهن، منتجة دلالة متكاملة للنص، نلمسها في تسلسل التراكيب القرآنية. وكل حرف وحركة ينطوي على جميع الإمكانيات البلاغية التي تدعم المعنى. فالنص يقوم على الأصوات المنطوقة. لذلك وجد الرافعي أن الإعجاز في الحروف متعلّق بالإعجاز الصوتي، فالأصوات تقابل التفكير وتسوق إليه. فكانت هذه الفكرة لديه قد وضعت الآلية المناسبة لقراءة النص القرآني من وجهته.

يمكننا أن نلاحظ اهتمام الرافعي بالصورة اللفظية، وهي رؤية وإن كان فيها من الجديد الدقيق، فإنها مسبوقة برؤى نجدها مبثوثة في المصنفات الأولى للجاحظ والقرطبي والجرجاني، وفي الحقيقة كل قراءات المحافظين للنص القرآني سواء التفسيرية أو النقدية، هي امتداد لما استقوه من المصادر القديمة، وفي النهاية عملية إعادة القراءة هي ما يحقق الكشف الفعلي عن الرؤى الجديدة، فالنص القرآني واسع الإمكانيات عميق الأفكار. سنكتفي بهذا القدر من القراءات المحافظة للنص القرآني وهي وإن اصطبغت بملامح التجديد فمعضلها ينهل من نظرية النظم وما أسفرت عنه من فتوحات في مجال اللغة.

ب- القراءات الحداثيّة للنص القرآني:

إن التقدّم الحاصل في الدرس اللساني الحديث، جاء بالكثير من القضايا الحداثيّة التي نادت بإعادة قراءة القرآن وتفكيك نصوصه وفق رؤية حداثيّة متقدّمة، والحداثة مذهب فكري أدبي علماني، يقوم على أسس المدارس الغربية المعروفة كالماركسية والوجودية والداروينية، يقضي بضرورة تجاوز القديم والاقطاع عنه. وبناءً عليه سنعالج الآليات الحداثيّة المتبعة من بعض النقاد في قراءة النص القرآني ضمن إطارين: التفكيكية والتأويلية.

1- الآلية التفكيكية :

تَبَيَّنَ قِسْمٌ من المفكرين الحديثين، مناهج نقدية تستمد آلياتها في قراءة النص القرآني من البؤرة النبوية؛ وليس يدور حديث في هذا الصدد إلا ونجد ذكر المفكر مُجَّد أركون، حيث نحا منحى القراءة التفكيكية للنص القرآني، والتفكيك هو: «قراءة في محنة المعنى ... يعني أنه لا مجال للقبض على المعنى الذي هو دومًا مثار الاختلاف والتعدد أو الانتهاك والخروج أو الالتباس والتعارض، بقدر ما يشكل إمكانًا لإعادة البناء والتركيب»¹⁰.

وعلى ذلك يكون استقبال القارئ للنص منوطًا بتوجهه وطبيعته فهمه لما يقرأ، وقد يمد هذا الفهم والتوجه الفكري برؤى مخالفة عن تلك التي يُلقِي بها النص، ومن هنا تتعدد أوجه القراءة وتتضاعف الدلالة، ويكون النص رهينة في يد القارئ، فيختلف مدلول النص من قارئ لآخر، ما يُؤَلِّد دلالات متناقضة للنص.

وقد جعل أركون من قراءة القرآن وتفكيكه فرصة تمنح الحرية في الربط بين الأفكار والتصورات انطلاقًا في رأيه من نصوص: «مختارة بخرية من كتاب طالما عاب عليه الباحثون "فوضاه" ولكنها الفوضى التي تختبئ الخزية المنتشرة في كل الاتجاهات... قراءات جديدة من أجل الخروج كليًا ونهائيًا من كل البلاغيات التعسفية، ومن كل التركيبات المنطقية الاصطناعية، ومن كل الأنظمة الخادعة المفروضة بعد فوات الأوان من قبل الجماعات الفقهية اللاهوتية التبجيلية»¹¹.

والظاهر من قوله أنه يضع بعض المنطلقات حول تفكيك النص القرآني، حيث يجعل منه نصًا عاديًا لا اختلاف بينه وبين باقي النصوص، ما يعني أنه يُسقط ميزة القداسة عن القرآن، فيتيح له ذلك نقد المضامين والمحتويات من خلال تفكيك الخطاب وتحليل الشكل البنائي له. وهو بهذه الصورة يستطيع التعامل مع النص بوصفه كبنية مستقلة، ويُنظر إليه دون مراعاة مقام المُخَاطَب وسياق الحال.

فالمناهج النبوي في تحليل النص، يتوجه نحو عزل النص عن سياقاته الخارجية، كما تعزله عن مؤلفه، أي تلك الدعوة الصريحة لموت المؤلف، وهو ما لخصه رومان جاكسون في أن موضوع الأدب ليس الأدب بل الأدبية، أي العوامل التي تجعل العمل الأدبي أدبيًا، فحصرها بذلك اهتمامهم في نطاق النص، وسكتوا عن كل ما يمكن أن يتصل به اتصالًا مباشرًا أو غير مباشر من عوامل نفسية أو اجتماعية قد يدل عليها ذلك النص، وقد تكون تضافت فكانت سببًا في وجوده¹².

نجد أن المنطق الذي تعامل به مُجَّد أركون مع النص القرآني من عزله عن مصدره الأول وسياقاته كأسباب النزول، هو تمام ما يطغى على الفكر البنيوي والألسني والفلسفي المعاصر. ولكن عزل النص عن مؤلفه وعن سياقاته الخارجية حتى ولو كان مجرد نص أدبي يدفع بالضرورة إلى محاصرة هذا النص في زاوية تتحور حول استنتاج مدلول اللغة، فكيف به إذا كان القرآن العظيم.

ومن المعلوم أن المجاز يحتل دورًا كبيرًا في الدراسات الأدبية، لما يملكه من قوة تقلل من معيارية اللغة وضبطها للمعاني، فتصبح اللغة بذلك مجرد إشارات يتحكم بها الإنسان كيف يشاء في المنهج الأدبي، وهو ما ركز عليه مُجَّد أركون، فراح يسلط الضوء على مسألة المجاز في القرآن الكريم، وتلك الصراعات التي قامت بين الفرق الإسلامية بمختلف أنواعها يقول: «إن التركيبة المجازية للخطاب القرآني ليست فقط مجرد تصعيد للواقع أو اعتلاء به، وليست أيضًا مجرد حلية أدبية أو تزويق أسلوبى جذاب يظل مع ذلك ماديًا ومباشرًا وذو دلالة معنوية، إنها ليست كل ذلك فقط، كما أراد أن يوهنها التفسير الإسلامي الكلاسيكي، وإنما هي عبارة عن تحريك للحياة والوجود بواسطة إمكانات اللغة الجمالية والفنية»¹³.

وقد عمد أركون إلى توظيف البنيات التركيبية والنحوية في تحليل النص القرآني، والبنية العاملة حسب مفهومه هي: «مجموعة الضمائر التي تتجادل أو حتى تتحارب داخل النص القرآني»¹⁴، وهذا ما جعله يُوجد في بنية التراكيب القرآنية عناصر مستقلة تحمل التأويل ضمن تركيبة النص لا غير، فمثلاً أثناء تحليله للبنيات النحوية لسورة الفاتحة اعتبر أركون أن آيات الفاتحة تنقسم إلى نوعين من الجمل: أربع جمل قاعدية وهي: 1- { بسم الله }، 2- { الحمد لله }، 3- { إياك نعبد وإياك نستعين }، 4- { اهدنا الصراط المستقيم }، وسبع لفظات إخبارية تتمثل في الجمل التركيبية التي تُكمل هذه الجمل من سورة الفاتحة¹⁵.

وهذا التناول عنده يتم بناء على التقطيع التركيبي للجمل؛ والآيات القرآنية تعرض المعاني بطرق خاصة، ونحن نتلقى هذه المعاني متكاملة من خلال الترتيب الذي جاءت به، إن هذا التقطيع الذي اعتمدته أركون يُحيلنا إلى المنهج التحويلي، الذي يميز بين مجموعتين فرعيتين من الجمل النحوية الكلية، القائمة في اللغة: 1- الجمل النواة Kernelsentences، 2- الجمل غير النواة Nonkernelsentence. ويمكن الفرق بين هاتين المجموعتين الفرعيتين، في أن الجمل غير النواة، يتم اشتقاقها من الجمل النواة، بواسطة قواعد تحويلية¹⁶.

إن التصنيف النحوي للجمل ضمن مجموعة الجمل الأصولية والجمل المتفرعة عنها، هو ما قدم لأركون عناصر النموذج العملي الذي يوجد في كل سرد لغوي أو حكاية، إذ تمكن من خلاله أن يوضح الأهمية المركزية للفاعل من خلال الجمل النواة: "بسم الله" وجملة "الحمد لله"، ليصل أركون بهذا لكون العبارات النويات الأربع تحتوي على عناصر النموذج العملي القائم في كل سرد لغوي أي: (الفاعل، الموضوع، المرسل، المرسل إليه، المعارضون، الأنصار أو المساعدون)، وعلى البنية المركزية للحال المقدس، وعلى الانعكاسات المعنوية المتضمنة في التوسعات.

والنموذج العملي الذي قدمه من خلال سورة الفاتحة، وبالصورة والأشكال اللفظية التي يظهر بها التقطيع، هي لاشك من صفات التحليل النحوي التحويلي، غير أن هذا التحليل الذي استعان به في منهجه البنيوي، وإن كان ناجعا على مستوى التراكيب، فإنه غير قادر على شرح العلاقات القائمة بين الجمل المكونة لسورة الفاتحة، فقد تتقارب عبارتان في الشكل، بينما تحمل كل واحدة منها معنى جديدا أو غاية تختلف عن الأخرى، كما أن الجمل غير النواة هي جمل مشتقة من الجملة النواة، فكيف نحكم على سبع عبارات من القرآن الكريم بأنها ليست جملا نواة وإنما فقط فرعية، ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا التصنيف لا يستبعد المعاني من التحليل النحوي، فواضح أنه يجعلها ثانوية شارحة للجمل النواة.

إن عرض النظام النحوي ينبغي ألا يقتضي المعاني الدلالية المرتبطة بفصائل التراكيب، و من الأفضل أن مثل هذه المعاني تُبحث ضمن سياقاتها، حتى وإن تعلق الأمر بكل عنصر على وجه الخصوص، فالسياق هو ما يمنح البنية التركيبية التناسق بين الفكر والشكل.

2- الآلية التأويلية:

على غرار محمد أركون نجد نصر حامد أبو زيد ممن اهتموا بالمشروع الحدائي لإعادة قراءة نصوص القرآن الكريم وفق المنهج التفكيكي، وقد استثمر في قراءته نظرية تأويل النصوص و«التأويل في أدق معانيه هو تحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل وإعادة صياغة المفردات والتركيب ومن خلال التعليق على النص. مثل هذا التأويل يُركّز عادة على مقطوعات غامضة أو مجازية يتعدّر فهمها. أمّا في أوسع معانيه فالتأويل هو توضيح مراعي العمل الفني ككل ومقاصده باستخدام وسيلة اللغة»¹⁸.

عمد نصر حامد أبو زيد إلى صرف النص القرآني إلى ما يحمله من المعاني وتأويله تأويلاً خاضعا لنوعية القراءة التي يتلقاها القراء، داعيا إلى تحرير النص القرآني ودلالاته من القيود التي تفرضها لقدمته، وقد وظّف لذلك مصطلح "الهرميونيطيقا"، ومصطلح الهرميونيطيقا باختصار هو: «نظرية التأويل وممارسته، ولذلك لا حدود تؤطر مجال هذا المصطلح سوى البحث عن المعنى والحاجة إلى توضيحه وتفسيره»¹⁹.

وبهذه الآلية التأويلية راح أبو زيد يبحث عن معاني متجددة للنص القرآني، تجعل للقارئ يدا في إنتاج المعنى لهذا النص، جاعلا من النص القرآني نصا كغيره من النصوص الأدبية، يقول في هذا الصدد: «إنّ النص القرآني في حقيقته وجوهره منتج ثقافي؛ والمقصود بذلك أنّه تشكّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقًا عليها، فإنّ الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية، ويعكّر من ثَمَّ إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص»²⁰.

بهذا يكون النص القرآني في منزلة النص العادي ما يجعله عرضة لآراء الأفراد وفهمهم الخاص. ومن بين الحدائين الذين مضوا على هذا النهج أيضا عبد المجيد الشرفي، حيث يستعين بالتأويل المقاصدي في سن قراءة حدثية للنص القرآني، فهو يرى أن القصد من النص القرآني يكمن في كيفية اعتماده والتعامل معه وتأويله، إذ يقول: «العبارة ليست بخصوص السبب ولا بعموم اللفظ معًا، بل في ما وراء السبب الخاص واللفظ المستعمل له يتعين البحث عن

الغاية والقصد. وفي هذا البحث مجال لاختلاف التأويل بحسب احتياجات الناس واختلاف بيئاتهم وأزمته²¹ وثقافتهم».

إن إطلاق العنان للتأويل بهذا الشكل، ليفتح المجال أمام القراءات التي تُخرج النص القرآني عن ظاهره دون ضوابط، والمعروف أن النص القرآني لا يحتمل التأويل لما يتسم به من وضوح في الدلالة والمعنى، وهذا ما يُوضحه الكفوي بقوله: «النص: أصله أن يتعدى بنفسه لأن معناه الرفع البالغ، ومنه منصّة العروس، ثم نقل في الاصطلاح إلى الكتاب والسنة وإلى ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، ومعنى الرفع في الأول ظاهر، وفي الثاني أخذ لازم النص وهو الظهور... والنص قد يطلق على كلام مفهوم المعنى سواء كان ظاهراً أو نصاً أو مفسراً اعتباراً منه للغالب لأن عامة ما ورد من صاحب الشريعة نصوص». ولهذا نجد المفسرين يعتمدون على السياق في تحليل النصوص القرآنية، فالا يحتمل النص إلا معنى واحداً، يُعطي للفظ المختار قيمة بالغة، إذ يعني ذلك أنّ التركيب لا يحتمل إلا هذا اللفظ للدلالة على هذا المعنى.

ثم إن النص في ضوء النظريات اللسانية النصية الحديثة لا يُفهم بعيداً عن سياقه الخارجي، إذ تؤكد هذه النظريات على ضرورة وضع منهج خاص في تحليل الخطاب، والالتزام بوضع قواعد إنتاج النصوص وتبنيها، والنظرة الكلية الشمولية للنصوص عن طريق ربط عناصر النص ومكوناته اللغوية بعناصر خارجية²².

إن ضبط الفهم الصحيح للنص القرآني، يستدعي الاهتمام بالمفاهيم التي تنتمي إلى الحقل اللغوي الخاص بالنص، وتتبع السياق من شأنه أن يكشف عن عناصر فعالة في المكونات التحليلية، ونحن نلمس أن ما عمل عليه محمد أركون ونصر حامد أبو زيد وغيرهم من الحداثيين خلال دعوتهم إلى إعادة قراءة النص القرآني وفق منهج التحليل البنيوي والتفكيكي، هو محاولة لبلوغ منهج جديد لتفسير القرآن الكريم، والحق أن القضايا التي يطرحونها تحتاج الكثير من الطرق والمناقشة، بحيث لا يمكن تجنبها في ظل الاستيراد الكامل للمناهج الغربية، وفي غياب استراتيجية موحدة في التعامل معها من النقاد العرب، وفي محاولة دائمة لاتباعها على الساحة الأكاديمية للأبحاث اللغوية والنقدية.

الخاتمة:

يتبين مما سبق أنّ الدراسات النقدية الحديثة التي اهتمت بالقرآن الكريم قد دأبت على تأسيس منهجية حديثة لقراءة النص القرآني، فبينما فضّلت فئة المحافظين الإبقاء على وشائج القربى مع المصنفات التراثية، راحت فئة الحداثيين تقطع صلتها بكل ما هو قديم حتى وصلت حد التشكيك في مصداقيته وحقيقته، بل وفي قداسة القرآن الكريم، وقد بلغنا بهذه الدراسة مجموعة من النتائج في الدراسات النقدية الحديثة للنص القرآني منها:

أولاً: إن الاتجاهات النقدية المحافظة استندت في قراءتها للنص القرآني إلى المصادر القديمة مع بعض اللمسات التجديدية التي اعتبرناها امتداداً للمصنفات الأولى.

ثانياً: ثبت أن قراءات المحافظين قد وضعت بعض الأسس الاستراتيجية لشق منهج جديد في تحليل القرآن الكريم كالقراءة البيانية ونظرية التصوير الفني.

ثالثاً: أوضحت الدراسة أن فئة الحداثيين تخضع لسيطرة الصرامة المنهجية التي يفرضها المنهج البنيوي ولا سيما التفكيكية التي جعلتهم يعتبرون النص القرآني نصاً أدبياً يمكن إخضاعه لقواعد المنهج وصرامته.

رابعاً: صلب الدعوة إلى تأسيس منهج جديد لقراءة النص القرآني يقوم على أزمة المنهج التي وقعت فيها الساحة النقدية العربية بشكل عام.

فقد كان البحث في آليات قراءة النص القرآني بغرض الوصول إلى حقيقة قدرة المناهج الحداثية على تجاوز القراءات القديمة، والتي كشفت الدراسة عن قصورها، بل وتعارضها مع طبيعة النص القرآني القائم على أسس فكرية ولغوية لا يمكن أن تخضع لمحدودية المنهج.

الهوامش:

1 - ينظر: مصطفى الصاوي الجويني، التفسير الأدبي للنص القرآني، القاهرة دار المعرفة الجامعية، 1998م، ص: 34.

- 2 - ينظر: عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف - القاهرة، الطبعة: السابعة، ص: 17، 18/1.
- 3 - المرجع نفسه، ص: 167/1.
- 4 - المرجع نفسه، ص: 168/1.
- 5 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير . الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997م، ص: 60/12.
- 6 - ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشرة، ص: 45.
- 7 - المرجع نفسه، ص: 36.
- 8 - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة - 1425 هـ - 2005 م، ص: 157.
- 9 - المرجع نفسه، ص: 157.
- 10 - علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، 2005م، ص: 26، 27.
- 11 - محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى 1999م، ص: 76.
- 12 - ينظر: المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب، 1977م، ص: 89.
- 13 - محمد أركون، الإسلام، الأخلاق والسياسة، ترجمة وتحقيق: هاشم صالح، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ومنشورات مركز الإنماء القومي، 1990، ص: 25.
- 14 - محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الأولى، 2001، الطبعة الثانية 2005م، ص: 62. (الهامش)
- 15 - ينظر: محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص: 133.
- 16 - ينظر: رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الثالثة 1417هـ - 1997م، ص: 189.
- 17 - ينظر: محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص: 133 (الهامش).
- 18 - ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل النقاد الأدبي، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 2002م، ص: 88.
- 19 - المرجع نفسه، ص: 88.
- 20 - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ص: 24.
- 21 - عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية: 2008م، ص: 80.
- 22 - أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت ص: 908.
- 23 - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، مؤسسة المختار - القاهرة - الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م، ص: 95.

مكتبة البحث:

- 1- أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

- 2- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير . الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997م، ص: 60/12.
- 3- المسدي عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب، 1977م.
- 4- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الثالثة 1417هـ - 1997م.
- 5- سعيد بحيري، علم لغة النص، مؤسسة المختار - القاهرة - الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 6- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشرة.
- 7- عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف - القاهرة، الطبعة: السابعة.
- 8- عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية: 2008م.
- 9- علي حرب، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الأولى، 2005م.
- 10- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى 1999م.
- 11- محمد أركون، الإسلام، الأخلاق والسياسة، ترجمة وتحقيق: هاشم صالح، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ومنشورات مركز الإنماء القومي، 1990م.
- 12- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الأولى، 2001، الطبعة الثانية 2005م.
- 13- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة - 1425 هـ - 2005م.
- 14- مصطفى الصاوي الجويني، التفسير الأدبي للنص القرآني، القاهرة دار المعرفة الجامعية، 1998م.
- 15- ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل النقاد الأدبي، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، الطبعة الثالثة: 2002م.
- 16- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية.